

هشام شرابي مفكراً

عبد السلام أحمد عابد*

مقدمة:

تناولت في هذا البحث المتواضع المفكّر الدكتور هشام شرابي⁽¹⁾، باعتباره واحداً من أبرز المفكرين والمثقفين الفلسطينيين المعروفين عالمياً، وبدأت أولاً بالحديث عن ميلاده وطفولته، بشكل عامٍ عن هذه الكتب التي لاقت انتشاراً واسعاً، ثمّ سلّطت الأضواء على سيرته الذاتيتين: الجمر والرّماد.. ذكريات مثقف عربي، وصور الماضي، وهما آخر كتابين ألفهما شرابي، وقد ضمّتهما ذكرياته وتجاربه أثناء مسيرته الحياتية والتعليمية في فلسطين، وبيروت، وأمريكا منذ طفولته حتّى كهولته. أملاً أن أكون قد وفّقت في تقديم جزء من الواجب تجاه هذا المفكّر الكبير الذي أحبّ وطنه العربيّ وأمّته العربيّة والإنسانيّة جمعاء.

السيرة الذاتية:

يعتبر المفكّر الدكتور هشام شرابي واحداً من أبرز المثقفين الفلسطينيين، حيث ولد في يافا سنة 1927م ودرس الفلسفة، في الجامعة الأمريكية في بيروت سنة 1947م، ثمّ حصل على الماجستير من جامعة شيكاغو سنة 1948م، وحصل على شهادة الدكتوراه عام 1953م، في تاريخ الثقافة، من الجامعة ذاتها. وعمل في التعليم الجامعيّ، ومنذ عام 1963م، أصبح أستاذاً في جامعة جورج تاون⁽²⁾

* باحث وكاتب - جنين - فلسطين.

¹ 1927-2005م.

² الجيوسبي، د. سلمي الخضراء، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر 2 التّثر، المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر، بيروت، 1997 م ص378.

عاش طفولته بين يافا وعكا في دار جدّه، درس المرحلة الابتدائية في مدرسة (الفرنذ) في رام الله. بدأ رحلته مع العمل السياسي بالانضمام إلى جمعية سرّية، في فترة مبكرة من عمره، وكان هدف هذه الجمعية تحرير الوطن العربي وتوحيده، وأصبحت فيما بعد نواة من قوى حركة القوميين العرب.

أثناء وجوده في بيروت، خلال الأربعينات، انضم إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، حيث كان رفيقاً لأنطون سعادة. كان شرابي مسؤولاً عن فرع الحزب في أمريكا، وحدثت التّكبة عام 1948 أثناء وجوده هناك. وعاد شرابي إلى بيروت، وأصبح محرراً لمجلة الحزب الشهريّة (الجيل الجديد).

سافر شرابي إلى الولايات المتّحدة ثانية، بعد إعدام أنطون سعادة في بيروت، وبقى منتسباً إلى الحزب حتّى عام 1955م، إثر اغتيال عدنان المالكي في 22/4/1955م.

عمل أستاذًا لتاريخ الفكر الأوروبي الحديث في جامعة جورج تاون في واشنطن، ونشر مؤلفاته الجامعيّة باللّغة الإنجليزيّة. عام 1970م عمل أستاذًا جامعياً في الجامعة الأمريكيّة، وفي مركز التّخطيط الفلسطينيّ، وعمل محرراً لمجلة الدّراسات الفلسطينيّة الصّادرة عن معهد الدّراسات الفلسطينيّة، وترك بيروت؛ بسبب أحداث الحرب الأهليّة في لبنان.

زار مدينته يافا مع توقيع اتفاقية أوسلو، وكان متحمّساً لهذا الاتّفاق، ثمّ أصبح من المعارضين له. ومن المؤسّسات التي ساهم شرابي في إنشائها: مركز الدّراسات العربيّة المعاصرة في جامعة جورج تاون، ومركز التّحليلات السياسيّة حول فلسطين في واشنطن، وصندوق القدس الذي كان رئيساً لمجلس إدارته، وقدم منحاً للطّلبة الفلسطينيّين، وقروضاً لمهنيّين، وساهم في إنشاء روضات للأطفال، وتزويد المدارس بأجهزة حاسوب ومراجع، إضافة إلى تأسيس النوادي الثقافيّة والرياضيّة في الجليل

والمثلث. واستقرَّ هشام شرابي في بيروت عام 1998م، وفي 2005/1/13م، انتقلت روحه إلى بارئها؛ نتيجة إصابته بمرض السرطان⁽¹⁾.

ويقول هشام شرابي عن هجرته إلى أمريكا، وهو في العشرين من عمره: (لم تكن الهجرة هدفي. أكاد لا أصدِّق الآن أنني لم أقض فوق أرض وطني سوى عشرين عاماً من حياتي. لو بقيت هناك، لكنت أغلب الظنّ دخلت السجن أو قتلت أو في أحسن الأحوال أبعدت عنه بعد عذاب طويل، كما حدث للعديد من أبناء جيلي المثقفين. سنة 1947م غادرت البلاد، لكنّي فعلياً لم أهاجر. الهجرة تعني الاقتلاع وبدء حياة جديدة. إلّا أنّي لم أقتلع من وطني، ولم أبدأ حياة جديدة. بقيت جذوري مغروسة في أرض كنت بعيداً عنها.

ترى ما الأثر الذي تركه الحزب القومي السوري الاجتماعي على شخصيّة الدكتور شرابي؟. يجيب بنفسه في مذكراته، ويكتب: (تجسّد الأثر في المثاليّة التي زرعها في نفسي الرؤية القوميّة الاجتماعيّة، فأتجهت حياتي نحو العمل القومي والاجتماعي. لم يخطر ببالي يوماً أن أكرّس حياتي للريح الخاصّ، أو أضع مصلحتي الشخصيّة هدفاً أعلى في الحياة⁽²⁾.

¹ أبو نضال، نزيه، القلقيلي، عبد الفتّاح، الكاشف معجم كُتّاب وأدباء فلسطين، المجلس الأعلى للتربية والثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، رام الله، 2011م ص 156-157..

² ن.م.، ن.ي ص 156 – 157.

مؤلفاته المنشورة:

ألف الدكتور هشام شرابي ما يزيد على عشرين مؤلفاً وهي: الشَّرق الأوسط (باللُّغة الإنجليزيَّة) عام 1957م، وحكومات وسياسات الشَّرق الأوسط في القرن العشرين (بالإنجليزيَّة) 1962م، الثُّورة والقوميَّة في العالم العربي (بالإنجليزيَّة) 1966م، المأزق المميت، فلسطين وإسرائيل (بالإنجليزيَّة) 1969م، فلسطين والمقاومة (بالإنجليزيَّة) 1970م، الفدائيُّون الفلسطينيُّون: صدقهم وفاعليَّتهم، مؤسَّسة الدِّراسات الفلسطينيَّة بيروت 1970م، المقاومة الفلسطينيَّة في وجه إسرائيل وأمريكا، 1970م، المثقَّفون العرب والغرب (بالإنجليزيَّة) 1970م وترجم إلى العربيَّة عام 1971م وعام 1991م، الدِّبْلوما سيَّة والاستراتيجيَّة في وجه الصِّراع العربيِّ الصُّهيونيِّ بيروت 1975م، مقَدِّمات لدراسة المجتمع العربيِّ، دار الطَّلِيعَة، بيروت 1975م وعام 1991م وعام 1999م، الجمر والرَّماد، ذكريات منقَّف عربي (سيرة) دار الطَّلِيعَة بيروت 1978م، البنية البطريركيَّة 1986م، صالح برانسي: النِّضال الصَّامت، ثلاثون سنة تحت الاحتلال الصُّهيونيِّ (تاريخ شفهيُّ أجراه هشام شرابي مع صالح برانسي) دار الطَّلِيعَة بيروت 1981م، عطر يافا: مجلَّد كبير (للأطفال). النِّظام الأبويُّ وإشكاليَّة تخلُّف المجتمع العربيِّ (بالإنجليزيَّة) 1988م و ط2. مركز دراسات الوحدة العربيَّة بيروت، 1992م، ط3، 1993م، المؤسَّسة العربيَّة، بيروت، 2000م، النِّقد الحضاريُّ للمجتمع العربيِّ في نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، 1991م، الرِّحلة الأخيرة وصور الماضي (سيرته الثَّانية) 1993م، نصوص ومقالات في القضيَّة الفلسطينيَّة، المؤسَّسة العربيَّة، بيروت 2000م، أزمة المثقِّفين العرب، دار نلسن، بيروت 2002م، الوعي والتَّغيير، التَّربية والتَّثقيف الاجتماعي. ⁽¹⁾

¹ مصدر سابق، الكاشف معجم كُتَّاب وأدباء فلسطين ن. ي ص 156 - 157.

إضاءة على بعض الكتب المنشورة للدكتور شرابي:

يقع كتاب (النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي) في مئة واثنين وثمانين صفحة من القطع الكبير، وقد ترجمه إلى العربية محمود شريح، ويشتمل الكتاب على عشرة فصول وهي: الأبوية المستحدثة: التصور والواقع، والأبوية والحداثة، والتشكّل الاجتماعي للأبوية المستحدثة، وبنية الأبوية وعلاقتها الاجتماعية، والجذور الاجتماعية التاريخية للأبوية المستحدثة، والأبوية المستحدثة في عصر الإمبريالية، وخطاب الأبوية المستحدثة، والتقدّ الجذري للثقافة الأبوية المستحدثة، وهيمنة البرجوازية الصغيرة، أمّا الفصل العاشر فكان تحت عنوان: ما العمل؟.

في مقدّمته لهذا الكتاب، الذي انتهى من تأليفه، قبل انطلاق الانتفاضة الفلسطينية، وبدء التحول الديمقراطي في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي، يوضّح شرابي أنّ الجديد في هذا النمط هو تقلص دور العقائد والأيدولوجيات الكلية الشاملة، وانتشار التعددية السياسية وانبثاق الحركات الشعبية المطالبة بالحرّيات الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية.

ويهدف كتاب النظام الأبوي... إلى الكشف عن أسباب التخلف العربي، وكيفية تجاوز هذا التخلف والتغلب عليه. وشرابي يرى أنّ هذا التخلف يتخذ أشكالاً عدّة تميّز عن بعضها بصفتين مترابطتين: اللا عقلانية والعجز. اللا عقلانية في التدبير والممارسة، والعجز عن التوصل إلى الأهداف التي نرنو إليها. واللا عقلانية في التحليل والتّخطيط والتنظيم، والعجز عن الوقوف في وجه التحدّيات، والتغلب عليها. إنّ التخلف المتمثّل في شلل المجتمع العربي ككل: في تراجعاته المستمرة، وفي انكساراته المتكرّرة، وفي انهياره الداخلي. إنّ مصير مجتمعنا يتوقّف على مقدرته في التغلب على نظامه الأبوي (والأبوي المستحدث) واستبداله بمجتمع حديث. ويوضّح شرابي أنّ

النِّظام القائم في المجتمع العربيّ ليس نظامًا تقليديًّا بالمعنى التُّراثيِّ، كما أنّه ليس معاصرًا بالمعنى الحدائويِّ، بل هو خليط غير متماز من القديم والحديث، من التُّراثيِّ والمعاصر.

ويرى الدُّكتور هشام شرابي في دراسته عن النِّظام الأبويِّ وإشكاليّة تخلُّف المجتمع العربيِّ، أنّ الدِّهنيّة الأبويّة تتمثّل في نزعها السُّلطويّة الشّاملة التي ترفض التّقدّم، ولا تقبل بالحوار إلّا أسلوبًا لفرض رأيها فرضًا. إنّها ذهنيّة امتلاك الحقيقة الواحدة التي لا تعرف الشُّكَّ، ولا تُقرُّ بإمكانيّة إعادة النّظر. ولهذا فإنّ الدِّهنيّة الأبويّة والأبويّة المستحدثة، علمانيّة كانت أو دينيّة، لا تستطيع تغيير موقفها؛ لأنّها لا تعرف، ولا تريد أن تعرف إلّا حقيقتها، لا تريد إلّا فرضها على الآخرين، بالعنف والجبر إن لزم الأمر.

وللخروج من حالة الفوضى التي نعيش فيها، يقرّر شرابي أنّنا نحتاج إلى رؤية بعيدة المدى، وإلى نوع من الممارسة الجماعيّة التي لا تنتهي بانتهاء حياتنا كأفراد. هذا التّغيير يتّخذ الزّمن إطارًا له، ويستمرُّ في مراحل تتراكم فيها نتائج الأعمال التي نقوم بها أفرادًا وجماعات، إلى أن تتحوّل الكميّة إلى نوعيّة فيصبح التّغيير جذريًّا شاملًا.⁽¹⁾

أصدر الدُّكتور شرابي كتابه (المثقفون العرب والغرب) عام 1971م باللُّغة الإنجليزيّة، فيما صدرت الطّبعة الثّانية منه باللُّغة العربيّة عام 1978م، عن دار النّهار للنّشر في بيروت. تضمّن هذا الكتاب ثمانية فصول، تحدّث في الفصل الأوّل عن انبثاق طبقة المثقّفين العرب، وفي الثّاني عن الأسس النّظريّة للتّزعة الإصلاحيّة في الإسلام، وفي الثّالث عن أيديولوجيّة الإصلاح الإسلامي، وتناول في الفصل الرّابع البنية الاجتماعيّة والفكريّة للمثقفين المسيحيّين، وفي الخامس الأيديولوجيّة

¹ شرابي، د. هشام، النِّظام الأبويِّ وإشكاليّة تخلُّف المجتمع العربي، وزارة الثّقافة، عمّان - الأردن، 2009م، من ص 7. 17.

الاجتماعية لديهم، وفي السّادس تحدّث عن بروز العلمانيّين المسلمين، وخصّص الفصلين السّابع والثّامن للحديث عن المثقّفين العرب والعمل السّياسي، وعلاقتهم بالغرب.

وركّزت هذه الدّراسة على المرحلة الأولى التي بدأت في أواخر القرن التّاسع عشر حتّى أوائل القرن العشرين (1875 - 1914م)، وتمتدّ المرحلة الثّانية بين الحربين، وتتميّز بسيطرة الغرب المباشرة على العالم العربيّ، وتنتهي مع بداية الثّورة العربيّة ضدّ الغرب، فيما تبدأ المرحلة الثّالثة من نهاية الحرب العالميّة الثّانية، متضمّنة تحرّر العالم العربيّ سياسيّاً من الغرب، ورفضه للقيم الغربيّة وثقافتها. وحاول شرابي كما يشير في المقدّمة تحليل التّغيير من وجهة التّاريخ الفكريّ، فنظر إلى مثقفي هذه المرحلة، عبر أدوارهم، كمعلّقين على تجربة جيلهم وكمفسّرين لها، وليس من خلال أعمالهم.⁽¹⁾

كتاب (مقدّمات لدراسة المجتمع العربيّ) للدّكتور هشام شرابي لاقى إقبالاً كبيراً في أنحاء الوطن العربيّ كافّة. وهو حصيلة محاضرات ألقاها في جامعة جورج تاون في العام الدّراسيّ 1973م - 1974م، بحضور طلبة ماجستير ودكتوراه عرب وأمريكيّين. يقع هذا الكتاب في مئة وثلاث وخمسين صفحة من القطع المتوسّط، وخصّصه شرابي لشرح بنية العائلة في المجتمع العربيّ، والحديث عن بعض المظاهر السّلبية كالاتكاليف، والعجز والمهزّب، وأكّد أهميّة الوعي والتّغيير، والتّحدّي الحضاريّ للإنسان

¹ شرابي، د. هشام، المثقّفون العرب والغرب عصر النّهضة. الطّبعة الثّانية، دار النّهار للنّشر، بيروت، 1978م، ص 13 - 14.

العربيّ، وخصّص فصلين لمناقشة دور المثقّف العربيّ والمستقبل، والتثقيف الاجتماعيّ والتلفزيون.⁽¹⁾

يقول شرابي: عندما نفيق من ذهولنا، ندرك أنّ الكوارث تؤدّي أحياناً إلى اليأس، وأحياناً إلى ترسيخ إرادة الصّراع. كان هذا أوّل درس أتعلّمه من الجدليّة التّاريخيّة. شدّة الصّدمة قوّت فينا الوعي وأخذت تعمّقه يوماً بعد يوم. من هنا كانت ثوريّة انكسار سنة 1967م: أن نستسلم لليأس أمر كان يساوي الاستسلام للعدوّ، يساوي العودة إلى حالة ما قبل الوعي. بعد حزيران، مرّت الأيام حزينة، مرّة. لكنّ الأمور بدأت تتغيّر. بالنّسبة لشرابي، يضيف: شعرت كأني كنت في غرفة مظلمة، ثمّ رويداً رويداً بدأت الظلمة تنقشع. أخذني الوعي الجديد بشكل مفاجئ، وفيما بعد، أخذ يتعمّق، بالقراءة، بالتّجربة، بالتّفكير. وبعد تجارب عديدة أدرك شرابي أنّ الخطوة الأولى في التّحرُّر تكمن في التّحرير الدّاتي، وأنّ بداية التّحرير تكمن في التّخلّص من عبوديّة الفكر المسيطر، ويضيف: (لكن سرعان ما اكتشفت أنّ تحقيق هذه الخطوة ليس أمراً سهلاً، وإنّما هو في غاية الصّعوبة. إذ إنّ التّحرُّر الدّهنيّ يتطلّب عمليّة غسل دماغ جذريّة وطويلة المدى، وإعادة نظر في جميع ركائز الفكر الموروثة، والمستمدّة من الثّقافة المهيمنة، وإخضاع هذا الفكر لنقد مستمرّ وشامل.

وعن المجتمع الغربيّ، يقول شرابي من وحي تجاربه: إنّ المجتمع الغربيّ هو أوّل مجتمع في التّاريخ، يستطيع بفضل تقدّمه العلميّ والصّناعيّ، أن يوفّر لأفراده الأسس الماديّة لبناء حياة إنسانيّة حقّة. ولكنّه بدلاً من أن يحقّق ذلك، خلق نظاماً اجتماعياً اقتصادياً، لا يزال يرتكز على استغلال الإنسان، وعلى قهره وكتبته. إنّ الغرب الحديث

¹ شرابي، د. هشام، مقدّمات لدراسة المجتمع العربيّ، الأهلّيّة للنّشر والتّوزيع، بيروت 1977م، ص

قائم على العنف والاستغلال، وهو مضرّج بالدماء، وإذا قسناه بمقدار القتل والدّمار الذي سبّبه في عصرنا، لوجدناه أكثر وحشيّة وأشدّ همجيّة، من أيّ مجتمع في التّاريخ. ويضيف شرابي: إنّ الإنسان في هذه الحضارة، لا يكون القيمة الأساسيّة، أو الهدف الأخير للمجتمع، كما تقول نظريّاته ومثله الأخلاقيّة. إنّهُ أداة للنّمُو الاقتصاديّ الأعمى، والتّوسُّع الاستهلاكيّ من دون نهاية، ولا يشكّل غاية إنسانيّة في حدّ ذاته، إلّا في أوقات الوعظ في الكنائس، والمناسبات الخطابيّة.

ويقرُّ شرابي أنّ مقدرة العرب على مجابهة التّحدّي الحضاريّ تتوقّف على أمرين: أوّلاً. على فهم صحيح لحقيقة الغرب ولما نريده منه. وثانيًا. على القدرة على تجاوز نظريّة التّحديث، ونظريّة التّقليد في مجابهتنا للغرب، والسّير في طريق حضاريّ مستقلّ. ويضيف: فقط بالعودة إلى أنفسنا، وبالاعتماد على قوانا وإدراكنا وإرادتنا المستقلّة، نستطيع أن نبني مجتمعًا، وحضارة جديدة، كما نريدهما نحن، لا كما يتصوّرهما أو يريدنا غيرنا. والعودة الحقّة إلى النّفس لا تكون إلّا بتحرير النّفس. وما تحرير الطّفل وتحرير المرأة إلّا الشّروط الأوّل والأساسي لتحرير الإنسان في المجتمع العربيّ، وبالتالي تحرير المجتمع بكامله. إنّنا بحاجة لبناء حضارة يكون هدفها تلبية حاجة الإنسان لا حاجة الآلة أو صاحبها، حضارة قادرة على دخول التّاريخ، والإسهام في تقدّم الإنسانيّة.⁽¹⁾

ويرى الدّكتور شرابي أنّ المثقّف ليس من أحسن القراءة والكتابة، أو من حصل على شهادة علميّة، بل إنّ صفتين أساسيّتين هما اللّتان تميّزانه وهما: الوعي الاجتماعي الذي يمكّن الفرد من رؤية المجتمع وقضاياها من زاوية شاملة، ومن تحليل هذه القضايا على مستوى نظريّ متماسك. والدّور الاجتماعيّ الذي يمكّن وعيه الاجتماعيّ

¹ المصدر السّابق ص 98 - 99.

من أن يلعبه، بالإضافة إلى القدرات الخاصّة التي يضيفها عليه اختصاصه المهنيّ أو كفاياته الفكرية. وهناك أربع فئات من المثقّفين: الفئة الأولى تتألّف من المثقّفين الملتزمين الذين يتطابق عندهم التّفكير مع الممارسة، بحيث لا يمكن التّفريق بين حياتهم الخاصّة وحياتهم العامّة. هؤلاء يقدّمون حياتهم إلى قضيّة أو إلى هدف اجتماعيّ، فيصبح مصيرهم ومصير قضيّتهم مصيرًا واحدًا، وهذا أعلى أنواع الالتزام. وينبثق هؤلاء المثقّفون من خلفيّات وطبقات اجتماعيّة مختلفة، ولا يجمعهم اختصاص أو مهنة معيّنة، بل وعي واحد، وممارسة واحدة، فتجد الطّبيب إلى جانب الطّالب والأسّاذ والعامل والفلاح.

وتتألّف الفئة الثّانية من المثقّفين من أهل القلم... من الأدباء والكُتّاب والمفكرين العاملين اجتماعيًّا بالكلمة لا بالممارسة المباشرة. وهذا التّأثير لا يظهر إلّا في المدى الطّويل. والفئة الثّالثة تتألّف من العاملين في حقل التّثقيف والتّعليم من المعلمين، وتأثيرهم في العمل الاجتماعيّ هو نتيجة عمليّة التّعليم المباشر التي يمارسونها. أمّا الفئة الرّابعة، فتتألّف من المهنيّين أي من الأخصائيّين العاملين في الحقول العلميّة والصّناعيّة والإداريّة المختلفة.

وهذه الفئة هي الأكثر بعدًا عن الوعي الأيديولوجيّ والسياسيّ. وتأثيرها في المجتمع ينبع من ممارستها المهنيّة. ونتائج عملها في حقول اختصاصها.⁽¹⁾

والمثقّفون يمثّلون القوّة الدّانيّة الوحيدة في المجتمع العربيّ المعاصر التي تملك الوعي والقدرة على تحقيق هذه المهمّة التّاريخيّة. إنهم في قدراتهم العقليّة والتّقنيّة والعلميّة، يمثّلون قوّة المجتمع، وطاقته الإنسانيّة، وفي وعيم يعبرون عن إرادة هذا المجتمع وأهدافه. إنّ دورهم دور لا يقوى الخبراء أو الأخصائيّون الأجانب على تأديته،

¹ المصدر السّابق، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، ص 100 - 102.

وإذا أعطي الأجنبيُّ هذا الدَّورَ فمعنى ذلك أننا فقدنا زمام التَّاريخ، ورضخنا لإرادة خارجة عن إرادتنا. والمثقفون اليوم أمامهم خياران: إمَّا الاستسلام للقوى والمؤسَّسات المهيمنة، والقبول بدور المستخدم، وإمَّا لعب الدَّور التَّاريخيِّ، ورفض مدلَّة الاستخدام والاستزلام، والوقوف إلى جانب جماهير الشَّعب الَّتِي يتوقَّف عليها، في السِّياق الطَّويل مصير المجتمع ومستقبله.⁽¹⁾

السِّيرة الدَّاتيَّة: الجمر والرَّماد:

كتاب الجمر والرَّماد... ذكريات مثقَّف عربيِّ يقع في مئتين وتسع وثلاثين صفحة، بدأ شرابي بكتابته صيف عام 1975م؛ ليسجِّل فيه نهاية مرحلة من حياته، ظلَّها انتهت، وبداية مرحلة جديدة ظلَّها بدأت، إلَّا أنَّ المرحلة الجديدة لم تتحقَّق، والمرحلة السَّابقة استمرَّت. وغمره إحساس أنَّ الفرصة قد فاتته، وأنَّه لن يعود إلى وطنه، بل سيمضي ما تبقى له من العمر في بلاد الغربية، وأنَّه سيموت فيها. لكنَّه يكتب في مذكِّراته: لكن... لا.. هذا لن يحدث. شعبي هو جزء من حياتي، لم أتركه يوماً، ووطني أحمله في قلبي، لا أقدر أن أتخلَّى عنه، سأعود يوماً.

هذا الكتاب ينتمي إلى فيِّ السِّيرة الدَّاتيَّة. حيث يكتب شرابي بصدق وحميميَّة عن الأحداث والمشاهد والأماكن الَّتِي مرَّ بها، وكانت له ذكريات معها. يبدأ السُّطور الأولى من الكتاب بوصف مطار اللدِّ، يوم سفره إلى أمريكا للدراسة، في منتصف كانون الأوَّل 1947م. كانت الطُّرق خالية إلَّا من المصقَّحات البريطانيَّة. ورغم أجواء الحرب الَّتِي تنذر بالخطر إلَّا أنَّ الحياة كانت تسير كعادتها في القدس، يقول شرابي: أمس، كنَّا في القدس، في (أوتيل كلاريدج) بالقطمون، بعد الظُّهر ذهبنا لمشاهدة فيلم

¹ المصدر السَّابق، مقدِّمات لدراسة المجتمع العربي، ص 108.

(حبيب العمر) لفريد الأطرش وسامية جمال في سينما ركس، كانت القاعة ملاءى بالمشاهدين).

ويستقلُّ شرابي الطَّائرة، ومن نافذتها يلقي النُّظرة الأخيرة على يافا وبيوتها وبحرها، ولم يدُرْ بخلده أنَّه لن يعود إليها. وحينما يستعيد شرابي هذا الموقف، وهو يكتب مذكَراته، يوجِّه النَّقد لنفسه، ومجتمعه: (أسأل نفسي الآن، كيف غادرنا بلادنا، والحرب قائمة فيها، واليهود يستعدُّون لابتلاعها؟ لم يكن يخطر على بالنا تأجيل دراستنا، والبقاء في وطننا؛ لنقاتل. كان هناك من يقاتل عوضًا عنَّا.. أولئك الَّذِينَ قاتلوا في ثورة 1936م والَّذين سيقاتلون في المستقبل.. إنَّهم فلاحون، وليسوا بحاجة إلى التَّخصُّص في الغرب. ويضيف ساخراً بمرارة: موقعهم الطَّبِيعي هنا، أمَّا - نحن المثقَّفين - فموقعنا في مستوَى آخر.. نحن نصارع على جبهة الفكر، ونقاتل قتال العقل الميرير. ويستخدم المؤلِّف أسلوبًا قصصيًا مانعًا، قائمًا على استخدام ضمير المتكلِّم، والفعل المضارع، ووصف المشاعر، والمكان، وسرد التَّفصيل الصَّغيرة: (أدخل غرفتي، وأغلق الباب ورائي، للمرَّة الأولى، منذ مغادرتي مطار اللد، أستطيع التَّفكير بهدوء، ها أنا أخيرًا في أمريكا، تحقَّقت أحلامي، ووصلت إلى جامعة شيكاغو، وأنا الآن في غرفتي الخاصَّة... أحسست بالوحشة تغمرني.. قلبي يكاد ينفجر.. إنِّي على وشك البكاء.. أريد العودة إلى وطني وأهلي، وإلى الحزب الَّذي تركته ورائي...)⁽¹⁾

وعبر طريقة الاسترجاع، يعود شرابي بذاكرته، إلى طفولته الأولى في يافا وعكا، فيعرِّفنا على أفراد أسرته، والده ووالدته وإخوته وجده وجدَّته، يقول: كانت جدَّتي من عائلة أرستقراطية متديِّنة، وكانت كلَّ يوم جمعة، توزِّع الصَّدقة على الفقراء،

¹ شرابي، د. هشام، الجمر والرَّماد ذكريات مثقَّف عربي، منشورات ابن رشد، المكان والتَّاريخ غير موجودين، ص 9-15.

بعد صلاة الظهر، وكانت تدير الرّاديو إلى أقصى علوّه؛ لسماع تلاوة القرآن الكريم... وبعد خطبة الجمعة كان الفقراء يأتون بالعشرات، ويجلسون في الحديقة، فيقدّم لهم الطّعام...).

هذه الطّبقة الاجتماعيّة الأرسطراطيّة التي عاش في وسطها هشام شرابي، حيث لم يعرف الحرمان، كانت تهتمُّ أولاً بالمكانة الاجتماعيّة، واسم العائلة، والكرم التّظاهريّ تجاه الضّيف. ويوجّه انتقاده إلى هذه الطّبقة بقوله: (في فترة الاحتلال اتّخذ الشّعور الوطنيّ عند هذه الطّبقة، شكل كرامة أهينت أكثر منه شكل حقّ قوميّ أو حرّيّة ديست، فكانت كرامة العائلة والحقّ القوميّ والحرّيّة أشياء متساوية. أمّا أنّ الشّعب كان يعيش حياة ذلّ وقهر، وثمان كرامته كلّ يوم، فأمر لم يكن يدخل في مفهوم هذه الطّبقة. من هنا لم يكن في مضمون الوعي القوميّ الذي ترعرعنا عليه ما يربط حياتنا وعملنا بواقع شعبنا وحياته. كان الاستقلال يعني - لدى هذه الطّبقة - التخلّص من أجناب يحتلون مراكز السّلطة في بلادنا، ويحرموننا من التّمثّل بها. أمّا تحرير الشّعب والمجتمع، بمعنى أن يستعيد الإنسان إنسانيّته، والمجتمع وحدته، وحرّيّته، فأمر لم يدخل في تصوّرنا أبداً...).

وفي كتاب سيرته يواصل هشام توجيه سهام النّقد لمفكّري طبقته الأرسطراطيّة التي انتهى إليها، فقد كان هؤلاء المفكّرون متناقضين يرون التّاريخ من خلال معاني موقعهم الطّبقيّ ومصالحه. يعشقون الماضي ويمجّدونه، يحبّون الغرب ويكرهونه، غرسوا في طلبتهم مرّكّب النّقص من الغرب، وتقديسه، وغدت المفاهيم القوميّة تعصّبيّة بعيدة عن المفاهيم الاجتماعيّة والتّاريخيّة الصّحيحة.

ويفرد الدّكتور شرابي صفحات كثيرة، لتجاربه في بيروت أثناء دراسته، في بداية الأربعينات، سواء تلك المتعلّقة بتجاربه الدّاتيّة، وعلاقاته مع زملائه، ومعلّميه

وأسرته وأصدقائه، أو تلك التجارب العامّة المتعلّقة بمجريات الأحداث الوطنيّة والقوميّة، كالأزمة الّتي حدثت في لبنان في عهد الاستقلال، عام 1943م، حيث أغلق الفرنسيّون البرلمان اللبنايَّ بالقوّة، وألقي القبض على عدد من الرُعماء بينهم بشاره الخوري رئيس الجمهوريّة، ورياض الصُّلح رئيس الوزارة، وتنصيب حكومة موالية لحكومة ديغول الفرنسيّة. ويصف شرابي مظاهر الوحدة الوطنيّة اللبنايّة الّتي كانت قائمة بين الاتّجاهات اللبنايّة كلّها والأعمال المقاومة الّتي قامت بها الأحزاب والجماهير ضدّ الاستعمار الفرنسيّ.

ويروي شرابي في سيرته الدّاتيّة: (الجمر والرّماد) قصصًا وحكايات طريفة، فيها ما في القصّة القصيرة من عناصر: كالزّمان والمكان والأحداث المتشابكة والشخصيّات الواقعيّة والحوار، المطعّم بالإنجليزيّة أو الفرنسيّة تارة، وباللهجة العاميّة تارة أخرى، ولكنّه ظلّ ملتزمًا باللّغة العربيّة الفصيحة الّتي أحبّها منذ طفولته. ومن هذه القصص تلك الّتي جرت مع رجال المخابرات الفرنسيّين والإنجليز في بيروت ويافا، ويعقّب شرابي قائلاً: (ما الفائدة من الثّقافة والعلم، إذا كان الفرد يحقّر في وطنه، ولا يستطيع الرّدّ حتّى ولو بكلمة؟)⁽¹⁾

وما يميّز هشام شرابي في سيرته الدّاتيّة صدقه مع نفسه، وذكره لعيوبه وضعفه، وصراحته مع قارئه، وانتقاده الشّديد للمسلّمات الّتي يعتقدونها هو أو غيره من المحيطين به من زملاء ومعلّمين ومفكّرين، يقول: (في تلك الأيام، كان كلّ منّا يعتقد أنّه (فلتة) يمتاز عن بقيّة النّاس بذكائه وفطنته. ولم أكتشف خطي وأدرك بأنّي لست (فلتة) إلّا بعد مرور أعوام طويلة من الجهل والغرور).

¹ المصدر السّابق الجمر والرّماد ص 18-23.

كان شرابي محباً للقراءة، وجمع في نهاية دراسته الجامعية في بيروت مكتبة اشتملت على المئات من الكتب (اقتنيهما كتاباً كتاباً)، ودفعت ثمن كلٍ منها بحرمان نفسي من ملذّات عديدة. وضمت مكتبتي معظم المؤلّفات الكلاسيكية من هوميروس إلى نيتشة..)

وتحدّث شرابي مطوّلاً عن تجربته الثريّة في الحزب السُوري القوميّ، وعلاقته الوثيقة بزعيمة أنطون سعادة الذي كان مهتماً بالقضيّة الفلسطينيّة، وأعطاهما الكثير من الجهد والتّفكير.

وتتداخل الأحداث وتتمازج فيعود شرابي بين الحين والآخر إلى ذكريات دراسته في رام الله، ومرايع طفولته وصباه في يافا، وعكّا، فيتذكّر جدّته التي تحنّه على شرب البابونج، وجدّه الذي فقد عقله بعد ضياع الوطن، وذكريات الصيّد والسّيما والشّاطئ الجميل في عكّا، ثمّ ينتقل إلى لبنان وأمريكا وشيكاغو وثلوجها وبردها، وشعوره بالغربة والوحشة، وتذكّر أيّام نكبة عام 1948م وهزيمة حزيران عام 1967م.

لعكّا مكانة عالية في ذاكرة شرابي، إنّها بالنّسبة إليه (كانت وما تزال أجمل مدينة في العالم.. فيها أمضيت القسم الأكبر من طفولتي، وأجمل أيّام صباي... لقد زرت أنحاء مختلفة من العالم، وشاهدت شواطئ رملية عديدة، إلّا أنّي لم أر شاطئاً يضاهي شاطئ عكّا بجماله ورونقه. الرّمل فيه أبيض ناصع، ومياه خليجه نقيّة زرقاء، وأمواجه هادئة عريضة، تتكسّر برفق ونعومة)، ولكن، لماذا كان هذا الشّاطئ خالياً من المواطنين؟ يجبنا شرابي: لأنّ أهل عكّا (لا يحبّون السّباحة، ويفضّلون تمضية فترة الرّاحة في الجلوس على الشّرفات، أو في المقاهي، أو في التّمسّهي ساعة الغروب). وهل كان في عكّا، في تلك الأيّام دور للسّيما؟ نعم كان في المدينة داران للسّيما،

وهما: سينما البرج، والأهلي. وماذا عن عَراقة عَكا؟ إنَّها مدينة محاطة بالأسوار والتحصينات الإسلاميَّة، والأزقة المبلطة والمسقوفة. وأين كان هذا الطفل يستريح؟ يجيب هشام: (كانت حجرتي تطلُّ على البحر مباشرة، وكان فراشي يقع بالقرب من النَّافذة، فكنت أغفو وأستيقظ على هدير الأمواج. في الصَّبَّاح، كنت أتبيَّن من صوت وقع الأمواج على الشَّاطئ الصَّخريِّ إذا كان البحر هائجًا أو هادئًا، يصلح لصيد الأسماك أو للسِّباحة... تلك كانت أسعد أيَّام حياتي بلا منازع.)⁽¹⁾

دراسة شرابي في أمريكا، كانت مليئة بالتَّجارب الحياتيَّة و التَّربويَّة، ولم يعجبه سلوك بعض الطَّلبة العرب غير الجادِّين في دراستهم وسلوكهم الَّذي يتَّسم بعدم الالتزام، وعدم الشُّعور بالمسؤوليَّة، مقارنة مع الطَّلبة الأمريكيِّين الَّذين كانوا يطالعون ويحضرون ولا يمنعهم عن الدُّرس شيء، (فلا يسمح لنفسه بالراحة والتَّرفيه، إلَّا بعد أن ينهي ما يتوجَّب عليه. وكان سلوك الطَّالب العربيِّ على عكس ذلك تمامًا. كان حبيته بالمسؤوليَّة مرتبطًا بما هو خارج عنه، بسلطة تقف فوق رأسه، لا بدافع داخليِّ يلزمه ذاتيًّا. فإذا غابت عنه السُّلطة الخارجيَّة (سلطة الأب أو الأستاذ) حلَّت محلَّها نزعة فوضويَّة تدفع به إلى التَّهَرُّب من المسؤوليَّة، والسَّعي نحو اللَّذة، وإذا وجد نفسه حرًّا عجز عن استعمال حرِّيَّته).

وينهي الدُّكتور هشام شرابي كتابه (الجمر والرَّماد) بمشهد السَّفَر والوداع والهجرة القسريَّة من الوطن العربيِّ إلى الغرب: (الطَّائرة تعلقو رويدًا.. رويدًا فوق عمَّان، متَّجهة جنوبًا، البيوت تصغر حتَّى تبدو بحجم لعب الأطفال، ثمَّ تختفي ولا تبقى إلَّا الأرض

¹ المصدر السابق، الجمر والرَّماد ص 35-93.

الخالية، والتلال الجرداء، أنظر إليهما من خلال دموع لا أستطيع منع انسيابها. لقد نَبَذتني يا وطني.. لن أرجع إليك.. لن أرجع أبدًا.⁽¹⁾

السيرة الذاتية الثانية: صور الماضي:

مشهد السفر هذا إلى أمريكا الذي يتحدث عنه هشام شرابي حدث عام 1949م، إثر إعدام أنطون سعادة، والقضاء على الحزب السوري القومي الاجتماعي. ورغم أنه أمضى غالبية سنوات عمره مرغمًا في أمريكا، إلا أن جذوره ظلّت مغروسة في وطنه الذي عاش في أعماق قلبه. يقول شرابي في سيرته الذاتية الثانية صور الماضي: (إلى هذا اليوم، ما زلت غريبًا في هذا البلد الذي قضيت فيه الجزء الأكبر من حياتي. في صباح كلِّ يوم، في الصَّيف والخريف، أجلس في الشُرْفة المطلَّة على حديقتنا الصَّغيرة، أشمُّ عبير الورد الذي زرعتَه زوجتي حسب طلبي. أغمض عيني، ويخيَّل إليَّ أنّي أتنشَّق عبير الورد في عكا. وعندما ألتقط ورق الرِّعتر الأخضر الذي زرعتَه من أجلي، وأفركه بين أصابعي وأشمُّ رائحته أرى نفسي في جبال لبنان عند سوق الغرب وعاليه.. وعندما تقدِّم لي زوجتي عنب آخر الموسم، أذكر طعم عنب رام الله الذهبي الذي كان يقَدِّم إلينا عند عودتنا إلى مدرسة الفرندز في أوَّل الخريف. وفي الصَّيف، على شاطئ البحر في فيرجينيا، يتحوَّل كلُّ ما يحيط بي، ماء البحر، ورمال الشَّاطئ والأفق البعيد والهواء المشبع برائحة البحر، إلى صور وأحاسيس تذكِّرنِي بشاطئ يافا وعكا وبيروت. الواقع الذي عشته هنا منذ أكثر من أربعين سنة ما زال عاجزًا عن امتلاكِي. إنِّي كالمسافر الذي يملأ الحنين قلبه، منذ اللَّحظة التي يغيب فيها ساحل بلاده عن ناظره، ويعيش محكومًا بالآنيِّ والعابر، حقائبه دائمًا معدَّة، ينتظر ساعة العودة).

¹ المصدر السابق، الجمر والرَّماد ص 126 و ص 238.

غير أنّ شرابي يُقرُّ في مذكِّراته أنّ الغربة أفادته، من ناحية تمكُّنه من إتمام دراساته العليا، وحصوله على شهادة الدكتوراه بجدارة واستحقاق، ما مكَّنه من العمل أستاذًا جامعيًّا في إحدى كبريات الجامعات الأمريكيَّة. يقول شرابي: (كنت بين المحظوظين من المثقِّفين العرب الذين تمكَّنوا من الإفلات باكراً من رِنِقِ الثَّقافة الأبويَّة وأنظمتها السِّياسيَّة، وإصدار بحوث ودراسات دون خوف من سلطة أو رقابة فكريَّة).

في سيرته صور الماضي يبدأ شرابي بالحديث عن تجربته مع المرض الخطير الذي ألمَّ به، ويصف حالة التوتُّر والقلق والأرق التي كانت تعتريه ليلاً ونهاراً، لكنَّ هذا المرض لم يمنعه من التذكُّر والكتابة والتأليف. (في هذه الغرفة البيضاء الباردة، أشعر بحنين جارف إلى زوجتي، وإلى ابنتي ليلي... إلى بيتي، وكلِّ خاصِّ وحميم في حياتي).⁽¹⁾

ويواصل شرابي تذكُّر طفولته في فلسطين، ويرسم صورة قلميَّة للأماكن التي عاش فيها، أيَّام طفولته، ولا سيَّما عكَّا التي يعلِّق المؤلِّف صورها على حائط مكتبه، ويراها صباح كلِّ يوم. ويتذكُّر جدَّه اللطيف دمث الخلق، وأحاديثه معه. ويسترسل في ذكرياته الدافئة مع أمِّه وأبيه وإخوته وجدَّته وصديقاتها، وأصدقاء الأسرة في فلسطين ولبنان.

ونختتم حديثنا عن المفكِّر الدكتور هشام شرابي، بالمقدِّمة التي كتبها الأديب حنَّا أبو حنَّا لكتاب صور الماضي، تحت عنوان: على العتبة، يقول الأديب حنَّا أبو حنَّا: (كتب هشام شرابي فصولاً من سيرته الدَّاتيَّة في كتابه (الجمر والرَّماد) إلَّا أنّ (صور الماضي) تأخذنا إلى الينبوع، إلى ربوع الطُّفولة ومسارحها. ويترامى المدى فإذا بهذه الرُّبوع ملامح وطن راسخ في القلب والوعي والرُّؤيا. وإذا بالسِّيرة الدَّاتيَّة استحضر

¹ مصدر سابق، صور الماضي ص 22-33.

لهذا الوطن، وقبس لعيون الأجيال تصل حلقات السلسلة، وتقيم الصلة بين الفرع والجذر، في آفاق من إحياء النكهة واللون والنعم. ولذلك فإن التفصيل التي تروى عن مسارح الطفولة في يافا ورام الله وعكا، تنسج وشاحًا جميلًا يرتبط فيه الخاص بالعام، وتنقل إلينا عدوى هذا العشق الخالد لموطن تلك الربوع. إن هشام شرابي مسكون بالوطن، وأمواج البحر في عكا لا تني تتبارى لترتبي على شواطئ قلبه. وما زالت الساعة في ساحة يافا تنبض بخلجاته، وعلى تماوج ذوابات الصنوبر في رام الله تهوم ذكريات وأنغام. ويجاور القارئ قلب المؤلف إذ يعرفه على أفراد عائلته وصلاته بهم، ويعرفه على أصدقاء الطفولة والصبا، ويصارحه بكل ما كان يزوي في نواح من القلب لم يكشفها من قبل. ونسري مع الجداول الفكرية، ونطل على ينابيع المعرفة التي كان لها دورها في صياغة رؤيا هذا المفكر العالم. كتب هشام شرابي هذه السيرة بعفوية المصارحة المخلصة، التي تأسرك بدفء التوجه، ويسر المكاشفة، ووظيفية الأسلوب، وما ينطلق عن القلب ينفذ إلى القلب). صور الماضي المقدم.

المراجع والمصادر:

- 1- أبو نضال، نزيه، القلقلي، عبدالفتاح. الكاشف معجم كُتَّاب وأدباء فلسطين ن_ي. ط1. رام الله: المجلس الأعلى للتربية والثقافة-منظمة التحرير الفلسطينية، 2011م.
- 2- الجيوسي، سلى. موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر 2 النثر. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997م.
- 3- شرابي، هشام. الجمر والرَّماد ذكريات مثقَّف عربي. د.م: منشورات ابن رشد، د.ت.
- 4- شرابي، هشام. المثقَّفون العرب والغرب. بيروت: دار النهار للنشر، 1978م.
- 5- شرابي، هشام. النِّظام الأبوي وإشكاليَّة تخلف المجتمع العربي. عمَّان- الأردن: وزارة الثقافة، 2009م.
- 6- شرابي، هشام. صور الماضي سيرة ذاتيَّة. النَّصرة: منشورات الصِّنارة، 1994م.